الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

obeikandl.com

obeikandl.com

١ – أبو حيان التوحيدى

١ — لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثرا بعاطفتين اثنتين : الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الاداب العربية كاتبا مجيـدا أو شاعرا بليغا أو خطيبا منطيقا خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسر فى عبقرية البحترى مثلا يرجع إلى قوة شغفه بمعالم الجمـال ، كما أن السر فى عبقـرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحقـده على من عرف ومن لم يعرف من سـعداء الناس . وكذلك يعود السر فى تفوق عبد الحميـد ابن يحيى إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحجاج إلى ما كان يضطرم فى صـدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على الثائرين من أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدى الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقته البأساء ، وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن تجـده فى صميم أدبه إلا رعدا يزمجر كلما مر بباله خاطر الغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، والنباهة والخمول .

٢ — لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمع فى مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم تردّدوا بين نسبته إلى واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ، فقد نص فى كتاب الصداقة والصديق على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى سنة ٤١٤ (١) وفى هذا مايرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدى فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقـد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده فى مصر مع أنه

(١) حدّثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى السوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة فى مصر من ذلك الكتاب .

نشأ فى عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا الغموض فى حياة التوحيدى قيمة فى فهم جدّه العاثر، وحظه المنكود، فلو كان رجلا مجدودا فى دنياه لتلفت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيا محروما فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم يرأحداً عنى به من كتّاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتّاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبى حيان التوحيدى يرجع إلى حقده وثورته على الحياة والأحياء، فلأذكرأن تلك الثورة شبت فى مفتتح حياته ومستهل صباه ، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجرى بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمأنينة ، فقصد ابن العميد واستظل بفنائه حينا، ثم تحوّل الى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ماينقع غلته، ويطفىء صداه . هنالك انفجر بركان غضبه وتحوّل إلى أتُون متسعّر يرمى باللهب الماحق والشواظ المبيد . وقد حدّثنا فى كتابه (مثالب الوزيرين)[1] أنه لما قدم على الصاحب قدّم اليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال: يقول لك مولانا انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التى لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلا لايقبل أن يعصَى له أمر، أو يراجَع فى قول . ثم كانت أيام التوحيدى عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصلاه نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

"ماذنبى، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان ! على أنى قد سترت كثيرا من مخازيه، إما هربا من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش ، وبث الفضائح، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدّث به ؛ سوى ما فاتنى من حديثه، فانى فارقته سنة ٣٧٠ " .

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥

"وماذنبى إن ذكرت عنه ماجرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملنى عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأنى خُصصت بخساسته وحدى، أو وجب أن أعامل بها دون غيرى"(١) .

٤ — وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ خمسين حولا ما علىّ يدٌ ... لأجنبىّ ولا فضلٌ لذى رحم

الحمد لله شكرا قد قنعت فلا ... أشكو لئيما ولا أطرى أخا كرم

ثم صرح بأنه كان يتمنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبذور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيّق العذر فى الضراعة أنا ... لو قنعنا بقسمنا لكفانا

ما لنا نعبد الأنام إذا كا ... ن الى الله فقرنا وغنانا

ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

" اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونُبتَلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولىّ الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء"(٢) .

وهذا نص فى أنه كان مشغولا برزقه، وأنه كان لذلك معنيا بحمد الكرماء، وذم البخلاء، دفعا للفقر وطلبا للمال، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبى الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والثورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الغنى والجاه والملك، ومن هنا قلت فى شعر المتنبى عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والضغن والجحود .

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥ (٢) ياقوت ص ٤٠٤ و ٤٠٥ ج ٥

obeikandi.com

٥ — وما زال التوحيدى يقدّم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبعه الجامح فى أخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنار ، حتى لا يكون بينه وبين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب فى ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدّثنا فى تلك الرسالة بما يؤيد ماذهبنا اليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال فى وصف الغرض من كتبه :

«على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمدّ الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله» .

وفى تلك الرسالة فقرات مُرة موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذى شق كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهم ، وقوة الادراك . ولقد صوّر بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

"فجوابى لك : أن عيانى منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولاظهر لى من إنسان منهم حِفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدّة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب مافعلته وأتيته بما قدّمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيل " .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحة من النزاع الدائم الموصول الذى كانت تثور محرجاته بلا انقطاع بين التوحيدى وبين معاصريه ، فذلك رجل يعرف ماهو الضمير ، وما هى

متانة الخلق، ومامعنى الكرامة، ومامدلول الإباء، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشـواك : أشواك الملق والمداهنـة والرياء ، فمشى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لمخزيات الضعة والهوان والصـغار ممـا يضرم فى نفسه ثورة الحقـد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسـباب الخسة والدناءة والإسـفاف .

٧ — وفى تلك المعركة الداميـة التى خرج منها التوحيدى وهو بين الكتاب أهجى وأفحش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والجشع والحرص، قليل فى جمع المـال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترف مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : فى حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويُقبـل بنفس حازمة غنية على استدرار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقى العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسىَ فى سوق أبيع وأشترى دليـل على أن الأنام قـرود
ولا خير فى قـوم يذل كرامهـم ويعظم فيهـم نذلهم ويسـود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بمالا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه. ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

"جرى بينى وبين ابن مِسكويه شىء : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا — يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المـال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعـد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إنى أسألك عن شىء واحد فاصدق فانه لا مَدَبَّ للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهـذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه، أكنت تخيـله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المـال ؟ أوكنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على حقيقته فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد، أو شىء آخر من جنسه، وأنت تدّعى

الحكمة وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فأفطن لأمرك، وأطلع على سرك وشرك[١]».

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق .

ويظهر مع الأسف أن الانسان يبالغ فى درس الغرائز ونقد الطباع ، فاذا وصل الى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق ، وأسبغ على خصاله وشمائله أثواب الرضا والاعجاب .

٨ — هذا الذى قدمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف : الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة . والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون . وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه الينا رجلا فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية ، ثم صورها لنا تصويرا يقرب من الإتقان فى كتاب المقابسات . وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم، طبع أولا بالهند، ثم طبع أخيرا فى مصر طبعا متقنا معنيا به من بعض الوجوه . وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلا ، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلسفة الاسلامية . ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهده ، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الصواب، لأنه يحاكى الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التى تقبلها الناس فى ذلك الحين . وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف ، فاذا حاولوا

(١) ياقوت ص ٤٠٦ ج ٥

الاجابة والتعليل ظهروا ضعفاء عاجزين. وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطرة لم يتح لهم التغلب عليها، وكان من أثرها أن كثر الشك والارتياب والالحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيـدى فى إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبى إذ قال :

"ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك، لاعمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح؟ أما تضيق صدورهم . أما يكلّون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التى هى مشاكلة لحال البهيمية ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون[1] ؟

وفى الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبو حيان إطالة مملة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنـة بالعقل لا بالحس ، وأن العقل لا يعـتريه الملل، ولا تصيبه الكافة ، ولا يمسه اللغوب . وعلى ذلك بقى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى اللذات الحسية شأنا غير قليل، وجعلها من الغايات التى يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهى الجانب الأقوى من نفسية التوحيدى . وتتمثل هذه الشخصية الرائعة فى رسائله الوجدانية ، وفى استطراداته الممتعة التى جرى بها قلمه فى كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجدانى من التوحيدى تكوّن ونشأ فى هجير الفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدّث عن نكد دنياه وسواد لياليه . وانك لترثى له وتبكى لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

"وسمعت الخوارزمى أبا بكر محمـد بن العباس الشاعر البليغ يقول : (اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتنى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل، ويموت النقص كما مات العلم" وأقول : "اللهم اسمع واستجب، فقد برح الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل، وأشفى الرجاء"[2] والخوارزمى

---

(١) راجع ص ١٩٤ من المقابسات . (٢) ص ١ من الصداقة والصديق .

هـذا الذى يعجب به التوحيدى و يتحدّث عنه و يتأسى به رجل عانى فى دهره مرارة الجور والحيف، ورأى الناس يقدّمون عليه بديع الزمان وهو لدن العود غض الاهاب، فلا عجب أن يردّد "التوحيدى" شكاته وأنينه وهو الذى رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد .

١٠ — ولنقل هنـا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق فاليه يرجع الفضل فى تصوير الجانب الوجدانى من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هـذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التى نقلناها آنفا عن الخوارزمى، وانتهى بقوله فى الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فأقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويته ، على أنك لو علمت فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أى حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك ، وما يصغر منهـا بنقدك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبـة مفضية الى كرامة، فقد بلغت شمسى رأس الحائط، والله أستعين على كل ماهم النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس " .

وكتاب الصداقة والصديق كتب فى أدق وقت من حياة التوحيدى، كتب حين بلغت شمسـه رأس الحائط كما قال ، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنضج ثمرة من أدب التوحيـدى . وليس يهمنا فى هـذا المقام ما آشتمل عليـه من الفقرات الجميلة، والمقطوعات البديعة، والأخبار الطريفة، إنما يهمنا بنوع خاص مامر فيه من الصور الفنية الرائعة التى جرى بها قلمه البليغ ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية فى صور الخواطر والأفكار والتأملات، ومشى بنا فى أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسمات .

١١ — والصور التى يقدّمها التوحيدى تمرّ غالبا على أنها أحاديث . فهو يصوّر خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح ، وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنىّ اللغة قوىّ الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يندّ منهـا شىء . ولننظر كيف يقول فى تشعب أنفاس الناس فى الحب والبغض :

" وما من أحد إلا وله فى هذا الفن حصة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولىّ أو خليط . كما لايخلو أيضا من عدو أو كاشح أو مداج أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مزل أو مضل أو مغل[1] " .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعانى النفسية والوجدانية التى تعجز أكثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى عدة صور فى الصداقة والحب . من ذلك قوله فى التفرقة بين الصداقة والعلاقة : "الصداقة اذهب فى مسالك العقل، وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرمى الى حدود الرشاد ، وآخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة . فأما العلاقة فهى من قبيل العشق والمحبة والكلف والشغف والتتيم والتهيم والهوى والصبابة والتدانف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كالأمراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم و بين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواعظ ليفيئوا الى مافقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط[2] " .

ونقل فى موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمىّ يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :

مناغاة الصديق أعبث بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق، لأنك تفزع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تفزع بحديث الصديق الى المعشوق[3] .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن الى والده للتعزز به ، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به ، ويؤوى اليه ؛ وينزع الى الوالدة لشفقتها ودعائها الذى لايعرج الى الله مثله ؛ ويشتاق الى أخته للصيانة لها والترفع اليها ؛ والى ابن عمه للانتصار به ،

(١) الصداقة والصديق ص ٧٣ (٢) ص ٤٠ (٣) ص ٧٩

ولابنة عمه لأنها لحم على وضم ، و يصبو الى عشيقه لأن ذاك شيء يجده بالفطرة والارتياح الذى قلما يخلو منه كريم له فى الهوى عرق نابض ، وفى المجون جواد راكض . ثم قال : أما الصديق فوجدى به فوق شوق الى كل من نعتُّه لك ، لأنى أباثه بما أجل أبى عنه ، وأجبأ من أمى فيه ، وأطويه عن أختى خجلا منها ، وأداجى ابن عمى عليه خوفا من حسد يفقأ ما بينى و بينه . فأما العشيقة فقصاراى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظر ، ونصيب من زيارة ، وتحفة من حديث . وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم الىّ دون الصديق الذى حريمى له مباح ، وسارحى عنده مُراح ، أرى الدنيا بعينيه اذا رنوت ، وأجد فائتى عنده اذا دنوت ، اذا عززت له ذل لى ، واذا ذللت له عز بى ، واذا تلاحظنا ساقينا كأس المودة ، واذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة ، لايتوارى عنى إلا حافظا للغيب ، ولايتراءى لى إلا ساترا للعيب[1] .

وقد عرض التوحيدى للصداقة والحب والعشق فى آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع اليه من شاء .

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التى قدمها الينا التوحيدى حين قال :

"قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستانى : إنى أرى بينك و بين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومواتاة خلقية ، فمن أين هذا ؟ وكيف هو ؟ فقال : يا بنى ! اختلطت ثقتى به بثقته بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر ، ولا يحولان بالقهر . ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة ، حتى أنا نلتقى كثيرا فى الإرادات ، والاختيارات ، والشهوات ، والطلبات . وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بينى و بينه ، أو كأنى هو فيها أو هو أنا . وربما حدّثته برؤيا فيحدّثنى بأختها فنراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل" .

(١) ص ٦٢

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه فى شيء، أو يجد عليك فى شيء؟ فقال: وجدى به فى الأول قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى، على أنه يكتفى منى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه فى مثل ذلك بالاشارة القليلة. وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا فى ذلك مقنع، واليه مفزع، وقلما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا نذت عن صدرى الى لفظى، وذاك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والباطن الذى نتفق عليه، والظاهر الذى نرجع اليه، والأصل الذى رسوخنا فيه، والفرع الذى تشبثنا به. والله ما يسرنى بصداقة حُمْر النَّعم. واذا كنت أعشق الحياة لانى بها أحيا كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب الىّ روحها، وخلط بى طِيبها وحلاوتها[1]".

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثل هذا الحديث الشائق الخلاب، وما عسانا نجد فى الافصاح عن جمال التعبير فى مثل قوله "وقلما نجتمع إلا ويحدّثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا نذّت عن صدرى الى لفظى".

هيهات هيهات، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق اليها إلا الملهمون.

* * *

١٤ — وينبغى أن نشير الى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يتستر اتقاءً لسخط الجمهور، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة، كقوله: "الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا. وبين مدبِّر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به الى الصحة — هذا اذا كان الدواء ناجعا والطبع قابلا والطبيب ناصحا — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

(١) ص ٣ و ٤ من الصداقة والصديق.

الفضائل وفرغه لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار مستحقا للحياة الآلهية، والحياة الآلهية هى الخلود والديمومة"[1] .

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع وهى من أهم المصادر للفلسفة الاسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدى كان بينهم . أما لغتها فليست من النثر الفنى الذى كلف به مشاهير الكتاب فى ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير مايرمون اليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم فى مثل لغة الصابى وابن العميد . فلم يكن لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية فى بعض الأحيان[2] .

---

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات .

(٢) كانت رسائل إخوان الصفا خليقة بأن تدرس درسا مفصلا فى هـذا الكتاب . ولكنا رأينا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا ، و رأينا من ناحية ثانية أن النـثر الفنى فيها قليل . على أننا لم نغفلها جملة ، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية فى باب (الأخبار والأقاصيص) — راجع « الانسان والحيوان أمام محكمة الجن » فى الجزء الأول . وراجع كذلك الشواهد التى أثبتناها هناك فى فصـل (السجع والازدواج) .

٢ – أبو علي بن مسكويه

١ – لما أصلْ الى التثبت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلى صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فاثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فان الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندى أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ – اتصل ابن مسكويه فى شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاختص بأعلام بنى بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب فى ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك الملوك الى أخريات عمره . يدلنا على ذلك قوله يهنئ عميد الملك باتفاق الأضحى والمهرجان فى يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب ... اسعد بعيديك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى ... وذا يشير علينا بابنة العنب
خلائق خيرت فى كل صالحة ... فلو دعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره ... بعدا ، ورُدّ علىّ العمر من كثب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى ... لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرّس بى خصم تعصب لى ... و إن أساء إلىّ الدهر أحسن بى
وقد بلغت الى أقصى مدى عمرى ... وكلّ غربىَ واستأنست بالنوب
اذا تملأت من غيظ على زمنى ... وجدتنى نافخا فى جذوة اللهب

٣ — شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبى حيان التوحيدى، فقد غمزه فى كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغنى بين أنبياء"[1] واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأنطق بعض محادثيه بهذه الجملة "يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب: قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيميائى الرازى مملوك الهمة فى طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبى زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان اليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه. هذا مع تقطيع الوقت فى الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار فى عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس عن فوائتها تذوب وتحترق. ولقد قطن العامرى الرى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا الصاب والعلقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة فى نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ.

وقد أولع التوحيدى بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف فى الأخلاق. ولننظر كيف يقول فى كتاب الوزيرين.

"جرى بينى وبين أبى على مسكويه شىء: قال لى مرة: أما ترى الى خطأ صاحبنا — وهو يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق. فقلت بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف: أيها الشيخ! أسألك عن شىء واحد، فاصدق فإنه لا مدبّ للكذب بينى وبينك: لو غاط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال؟ أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه! فان كان

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٨٩

الذى تسمع على حقيقته فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شىء آخر من جنسه، وأنت تدعى الحكمة، وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فافطن لأمرك واطلع على سرك وشرك "[1].

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق، ومتانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين ابتُلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء، وألفوا التزلف والتودد الى أقطاب الجاه والمال. والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غريبا بين معاصريه من الأدباء، فليس عجيبا أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موفَّق مطمئن العيش كابن مسكويه. ولو شئنا لأضفنا أيضا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حدّ مدهش وكان يطمح فى التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل، ولهذا نراه حين يستر تحامله على ابن مسكويه لايجد غير هذا الثناء الهزيل إذ يقول :

" وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ "[2].

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدَّحا يتلقى لئام الشعراء والكتّاب، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمذانى رسالة عتاب تكلف فيها الودّ والإخلاص، وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان : لا يعترف لأحد بفضل، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة، ويود لو أمكنته المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يمر به من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبل إنسان سواه. وتكاد رسائله وقصائده تُقصَر على بث ما كان يعتلج فى صدره من حزازات وعداوات

(١) مرت هذه الكلمة فى الفصل السابق ص ١٣٧ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩٠

وأضغان وأحقاد، وقد آتصل بابن مسكويه حينا، ثم سعى بينهما الواشون فكدروا ما كان ينتظره البديع من طيب الصلات، فكتب الى صاحبه الرسالة الآتية :

وياعزّ ان واش وشى بيَ عندكم فلا تمهليه أن تقولى له مهلا
كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا تزحزح لا قريبا ولا أهلا

بلغنى — أطال الله بقاء الشيخ — أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره، ولا الصدق ظهوره، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله أن أقولها، وأستجيز معقولها . بلى قد كان بينى و بينه عتاب لا ينزع كنفه، ولا يجذب أنفه، وحديث لا يتعدّى النفس وضميرها، ولا تعرفه الشفة وسميرها، وعربدة كعربدة أهل الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال، ووحشة يكشفها عتاب لحظة، كغناء جحظة، فسبحان من ربى هذا الأمر حتى صار أمرا، وتأبط شرا، وأوحش حرا، وأوجب عذرا، بل سبحان من جعلنى فى حيز العذر أشيم بارقته، وأستخيل صاعقته، أنا المساء إليه، والمجنىّ عليه، والمستخَف به، لكن من بُلى من الأعداء كما بليت، ورمى من الحسدة بما رميت، ووقف من الوجد والوحدة حيث وقفت، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت، إعتذر مظلوما، وأحسن ملوما، وضحك مشتوما . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد، وأولاد العدد، بهذا البلد، ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية، لضن بعشرة غريب إذا بدر، وبعيد إذا حضر، ولصان مجلسه عمن لا يصونه عما رقى إليه . فهبنى قلت ما حُكى له، أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا من الأستاذ نفسا لا تستفز، وجبلا لا يهز، وشوا إليه بما أرّثوا به نارهم . ورد علىّ ماقالوه فما لبثت أن قلت :

فان يك حرب بين قومى وقومها فانى لها فى كل نائبة سِلْمُ

فليعلم الشيخ الفاضل أن فى كبد الأعداء منى جمرة، وأن فى أولاد الزنا عندنا كثرة، وقصاراهم نار يشبونها، أو عقرب يدبيونها، أو مكيدة يطلبونها، ولولا أن العذر إقرار بما

قيل، وأكره أن أستقيل، بسطت فى الاعتذار شاذروانا، ودخلت فى الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أتدارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الأبيات :

مولاى إن عدت ولم ترض لى ... أن أشرب البارد لم أشرب
إمتط خدى وانتعل ناظرى ... وصِدْ بكفى حُمَة العقرب
بالله ما أنطق عن كاذب ... فيك ولا أبرق عن خُلَّب
فالصفو بعد الكدر المفترى ... كالصحو بعد المطر الصيِّب
أن أجتن الغلظة من سيدى ... فالشوك عند الثمر الطيب[1]

ثم انتظر من ابن مسكويه ان يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة: "أما البلاغات التى أومأ إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها ، وما أذهبنى عن هذه الطريقة وما أبعدنى عنها ! وقد نزه الله لسانى عن الفحشاء، وسمعى عن الإصغاء ، وما يتخذ العدو بينهما مجالا"[2] .

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وان كانت عبارة ياقوت صريحة فى أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شغف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية واطلع على أكثر ما عرف العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ فى آثاره ظلالا كثيرة لآراء سقراط وجالينوس وأرسطاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه فى وضوح وجلاء فاقتفى مناهج اليونان فى عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية . وكذلك لم يقف فى دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التى كان يكتفى بها الصوفية

(١) ياقوت ج ٢ ص ٩٢ و ٩٣ (٢) ص ٩٣

والناسكون والزاهـدون، بل ساير العقل وصاحبَـه وأنس به واطمأن إليه، ثم اتخـذه أساسا للأخلاق، فصار العقل عنده نظيرا للوحى فى عرف المتبتلين، وما زال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسـه من الخلق المنقول: فهـو لا يفعل الخـير لأنه أُمر به ولا يجتنب الشر لأنه نُهىَ عنـه، وإنمـا يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وَفقا لمـا اطمأن إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق.

وإلى القارئ وصيته — أو دستوره إن شاء — فى نظام السلوك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهدَ عليه أحمد بن محمد ربَّه وهو يومئذ آمن فى سِربه، معافى فى جسمه، عنده قوت يومه، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن، ولا يريد بها مراءاة مخلوق ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة: عاهـده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره، فيعف ويشجع ويحكم. وعلامة عفتـه أن يقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمـله الشره على ما يضر جسمه أو يهتـك مروءته، وعلامة شجاعتـه أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة، ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصـل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر بابا:

إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات، والصـدق على الكذب فى الأقوال، والخير على الشر فى الأفعال، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسـه، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتى ينجزها، وأوّل ذلك ما بينه وبين الله عز وجل، وقلة الثقـة بالنـاس بترك الاسترسال، ومحبـة الجميـل لأنه جميل لا لغـير ذلك، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيـه العقل. وحفظ الحال التى تحصـل

فى شيء شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ، والاشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى المهم دون غيره ، وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغى ، وترك التوانى ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ، وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقل الطغى والبغى ، وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال اليه[1] .

---

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ - الاخلاق عند ابن مسكويه

١ - الخلق - كما عرّفه ابن مسكويه - حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء فى أصل الخلق، فبين أن منهم من ظنوا " أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التى لا تقمع إلا بالتأديب[١] " وأن منهم آخرين " ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم[٢] " وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه "ليس شىء من الأخلاق طبيعيا للانسان" وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وَفقا لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الأراء، ومزيته أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار، فيقول مثلا " وهذا الرأى هو الذى نختاره لأنا نشاهده عيانا" وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

(١) تهذيب الأخلاق ص ٣٧ (٢) ص ٣٨

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوانى والممتنع ، والسهل السلس ، واللفظ العسر ، والخير والشرير"[1] .

٢ — والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهى محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكدرت عليه بسبب حيرته فى تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع ارسطاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم فى كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يرتب أقوال الحكماء ترتيبا سيئا فى أكثر الأحوال ، لأنه لا يمضى الى غاية معينة يسوق فى سبيلها الحجج والبراهين . وقد يخلط أحيانا فى ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردىء والطيب والخبيث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبيين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت فى أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذى يثور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة فجاءتها فلسفة اليونان بزوابع وأعاصير أطارت ما كان آستقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتى من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموا من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومَثَلهم فى ذلك مَثَل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسطاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبق لعقله وروحه ما فيها من تثقيف للعقل وتهذيب للحس وتقويم للوجدان . ونحن نشهد فى عصرنا شواهد لذلك ، ففى رجال اليوم من له فى كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتتلمذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لهم فى توافقهم وتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون فى المساء صدى لكتاب قرأه فى الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

---

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤١

ومن معاصرينا من خلص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويحس وهو حر العقل والذوق والاحساس .

٣ — رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهى القصد إلى تثقيف الخواص : فهو لا يكتب فى الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بآرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر — فيما يظهر — بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتياب ، لهذا نراه يهتم أولا وقبل كل شيء باثبات وجود النفس وجودا مستقلا عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها فى التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية فى جذبهم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث ، وهم لا يضلون — وما أكثر ما يضلون ! — إلا ليأسهم من خلود النفس الانسانية ، وقولهم مع سائر الدهريين "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" .

٤ — وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه فى جميع الأحوال ، مطمئنا إلى أنه متى صحت المقدمات حقت النتائج . فلنختبر ماصنع فى بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه فى إثبات ما يريد ، وهو يذكر " أنا لما وجدنا فى الانسان شيئا مما يضاد أفعال الأجسام بحده وخواصه وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه فى حال من الأحوال ، وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هى من حيث كانت الأجسام اجساما والأعراض أعراضا حكمنا بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضا ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضا فانه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص" (١) .

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤

ومعنى هذا أن الانسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف فى تقـديره اثنان ، فلم يبق موضعا للنزاع إلا النفس وهى عنـده تضاد الأجسام فى الحدود والخواص .

" وبيان ذلك — كما شرح فى كتاب تهذيب الأخلاق[1] — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة .

مثال ذلك أن الجسم اذا قبـل صورة وشكلا من الأشكال كالتثليث مثلا فليس يقبـل شكلا آخر من التربيع والتدوير وغيرهما إلا بعـد أن يفارقه الشكل الأول، وكذلك إذا قبـل صورة نقش أو كتابة أو أى شيء كان من الصور فليس يقبـل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى وبطلانها البتة . فان بقى فيـه شيء من رسم الصورة الأولى لم يقبـل الصورة الثانية على التمـام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداهما على التمـام . مثال ذلك إذا قبـل الشمع صورة نقش فى الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنـه رسم النقش الأول" .

هـذا هو الجسم، أما النفس فتقبـل صور الأشياء كلهـا على اختلافها من المحسوسات والمعقولات "على التمـام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبـة ولا زوال رسم، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى أيضا تاما كاملا ؛ ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصـور" .

٥ — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه فى استقلال النفس، وكلامه فى هذا البـاب كلام الواثق من صحـة ما يقول ، وليته تذكر أننـا حين نؤمن بوجود شيء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشيء على النحو الذى نتصوره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف فى محو ما يحيك فى الصدور من الريب فى استقلالها

(١) ص ٤ و ٥

عن الجسم وتفردها دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم فى وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما ادعاه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص" فقد شاهدَ ناس أن النفس تتبع الجسم فى الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والخمول، وان الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة فى وجوه متباينة تبعا لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين فى تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مَدين إلى من يصادق ويخاصم فى تكييف ما يعتلج بصدره من ألوان المودّات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الاسلامية حين وضعوا آداب القضاء، واستحبوا للقاضى أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحوّل والتغير والفساد، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت فى حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" ولو سكت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يغنيان فى كشف ذلك السر الذى لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فاذا تركنا الجوانب النظرية فى أساس الأخلاق ومضينا نتعقب جهود ابن مسكويه فى شرح الجوانب العملية رأيناه فى أكثر الأحوال من الموفقين، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التى تقول "الانسان مدنىّ بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الانسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطير وحيوان الماء، لأن كل واحد من تلك خلق مكتفيا بنفسه غير محتاج فى بقائه إلى غيره، بل قد أزيحت علته فى جميع ما تتم به حياته خلقة وإلهاما . أما الخلقة فلأنه مكتس بما يوافقه من وبر وصوف وشعر وريش وما أشبه ذلك، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لاقط حب

فمنقار، وإن كان آكل عشب فمشفر وأسنان موافقة للقطع والقلع ، وإن كان سبعا أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلانه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره ، وينتقل من مصيفه إلى مشتاه ، ويعد مصالحه كلها من القوت ولكن بغير تعليم ولا تدبير، بل بالالهام المولود معه ، فكل واحد منها مكتف بذاته فى حياته التى قدرت له . فأما الانسان فانه خلق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعاناة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من المعاونين حتى يكونوا عدة كثيرة وجماعة وافرة ، وإذ كان هذا على هذا وكان سبيل الانسان فى حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى محتاج إلى ضروب المعاونات التى تتم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدن سواء كان ذلك فى الناس وبرا ومدرا أو على رأس جبل[1]" .

٧ — ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى التزهد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجاد الناس فى ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده ، فهو يطلب معاونتهم ثم لا يعاونهم ، وذلك ظلم وعدوان . فان ظن أحد من المتزهدين أن مقدار حاجته إلى معونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون "وإن كان لا يشعر بذلك[2]" .

وهذه دقة فى فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان فى الواقع مدين إلى إخوانه فى الإنسانية من قرب أو من بعد ، فالمصباح الذى نقرأ فى ضوئه ، ونظام البيت الذى نأوى إليه ، والكتاب الذى نهتدى بهديه ، والشرائع التى نعيش فى حماها ، كل أولئك جزء من جهود انسانية عديدة

(١) راجع ص ٦٣ من الفوز الأصغر . (٢) راجع ص ٦٤

منهـا القريب ومنها البعيـد، وتلك الجهود تظلنا ونحن أجنَّة فى بطون أمهاتنا ، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة ، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت . فلنعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية؛ ولنذكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل .

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذى عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق ،وهو فى هذا مسبوق بعدد عظيم من الكتاب والمفكرين ،ولكنه بسط القول فى الصـداقة بسطا شافيا ينساب إلى النفس انسياب المـاء إلى الأشجـار الظِّماء ، وهو فى ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المجرب الذى صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشـعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون . وقـد نقتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألُّف العـدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق . وتلك مسألة فى غاية الدقة : فطالمـا ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن فى الصداقة ما يغنى عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق .

٤ – ابن نباتة الخطيب

١ – اشتهر بابن نُباتة فى الأدب العربى ثلاثة رجال : أقدمهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب الذى ولد فى ميافارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤، والثانى محمد بن محمد بن نباتة المصرى الشاعر وصاحب "سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب كما أشار إليه فى آخر إجازته للصلاح الصفدى وهى مذكورة فى خزانة الأدب (٦٨٦ – ٧٦٨)[١] والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدى أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ – وابن نُباتة الخطيب الذى نحن بصدده رجل موفَّق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته[٢] . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة[٣] وعرض له ابن الأثير صاحب المثل السائر فى عدّة مواطن فى كتابه[٤] ، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبرى (٥٣٨ – ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ – ٦٢٩) وعثمان بن يوسف الفايوبى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كُتب عنه أن الرجل كان قد فنى فى الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوفا بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يتمنى لو يرى الرسول فى المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل الى الخطيب بن نباتة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت فى منامى كأنى بظاهر ميافارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نباتة لطاهر الجزائرى ومقدمة ديوان ابن نباتة البشتكى . (٢) ص ٥٠٧ ج ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و١٦٢ و٤٦٠

عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لى قائل : هذا النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرآنى فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأومأ إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرّة ، وآلى عليهم الدهر أليّة بَرة ، أن لا يجعل لهم الى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قُرة ، ولم يعدّوا فى الأحياء مرة ! أسكتهم الله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم ، وسيجدّدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يومَ يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومأت عند قولى تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، وبقولى شهيدا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا .

فقال لى : أحسنت ، ادنُ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهى وقبله وتفل فى فمى وقال : وفقك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منحى ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لاتدل على شيء أكثر من شغل الرائى واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له فى نومه لم يحدثه إلا بما يحب هو أن يتحدث به ، وكان ابن نباتة مغرما بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجّه الرسول اهتمامه فى المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقبيله إياه ثم تفله فى فمه ، و بقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهيه مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التى تردّد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت من بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت فى بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

الخطيب ابن نباتة فى المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : دفع لى ورقة فيها سطران بالأحمر وهما :

قد كان أمنٌ لك من قبل ذا واليوم أضحى لك أمنان

والصفح لا يحسن عن محسن وإنما يحسن عن جانى

وهذا المنام الأخير فيه صور غريبة، فالله عز شأنه دفع إلى ابن نباتة ورقة ، ولكن أى ورقة ؟ هى صحيفة مكتوبة بالمداد الأحمر ، وفيها بيتان من الشعر . فالرائى صور له وهمه أن المداد الأحمر أدل على القبول ، وأن البراءة حين ترد شعرا تكون أدل على العناية . وهذه الرؤيا تشبه ما قرأته — ولا أذكر أين — أن رجلا رأى أبا نواس بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فأجاب غفر لى بقولى :

تكثّر ما استطعت من الخطايا فانك واجدٌ ربا غفورا

وقد أشرت فى كتاب الأخلاق عند الغزالى الى المنامات التى رآها أنصار الغزالى وخصومه بعد موته ثم قلت فى التعقيب عليها : « وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالى من أصحاب الكرامات ، كما نوه بذلك مترجموه ، كلا ! وانما أتخذها دليلا على ماوصلت إليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فان لما يراه المرء فى منامه صلة قوية بما يلهج به فى يقظته ، وهؤلاء الذين جُلدوا فى منامهم لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالى وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء »[1] .

٤ — هذا الجو الذى أحاط بابن نباتة ، جو التقى والصلاح والزهد ، أثر فى خطبه أبلغ تأثير ، فأفاض فى ذكر الموت والبعث والحشر والميزان ، وأطال فيما سيلقى المحسنون من الثواب ، وما سيعانى المسيئون من العقاب . وهناك جو آخر أثر فى خطبه وأعطاها صبغة قوية رهيبة ، ذلك الجو هو اتصاله بسيف الدولة بن حمدان ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ويحثهم على نصرة سيف الدولة .

(١) الأخلاق عند الغزالى ص ٣٤٧

٥ — ولكن ما هى قيمة ابن نباتة الذى حدّثنا صاحب المثل السائر[١] أن خطبه كانت منشورة بين أيدى الناس يغرمون بها ويكبون عليها ، وأنها كانت فى أنفسهم تساوى مقامات الحريرى ؟

من الوجهة الفنية يعدّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، وسجعه حسن مقبول . وربما كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء ، فهو أسرع تأثيرا فى الجماهير التى لا تفطن إلا إلى الظواهر البراقة من حلية البلاغة والبيان . وربما كان فى اختيار الواعظين للسجع اتصال للتقاليد القديمة التى عرفت عن الكهان ، والكهان هؤلاء كانوا رجالا يؤدّون فى البيئات الجاهلية ما يؤدّيه الخطباء الواعظون فى البيئات الاسلامية ، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائما عامة الناس الذين يجدون فيما تحتوى السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيرا لما لا يدركون من النزعات الانسانية الكامنة التى يهيجها النغم والإيقاع .

٦ — وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة ، وذلك مما يهتم به الحريصون على التفوق فى الصناعة اللفظية ، ولنضرب المثل بقوله :

" حتى إذا استحكمت فيهم طماعية التخليد ، واستولت عليهم رفاهية التمهيد[٢] " .

وهو فى هذه الكلمة قابل بين "طماعية" و"رفاهية" و بين "التخليد" و"التمهيد"...وقوله :

" ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا ، وطال بهم العفاء فأخلقوا[٣] " .

فقد قابل بين " صال " و " طال " و بين " القضاء " و " العفاء " و بين " أطرقوا " و " أخلقوا " .

وكذلك قوله : " فهلم عباد الله الى محاسبة النفوس ، قبل مواثبة النحوس ، ومقارنة الرموس ، ومعاينة اليوم العبوس ، يوم غض الرءوس ، وفض الطروس[٤] " .

والموازنة فى هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج الى تعيين .

---

(١) ص ١١٨ (٢) ص ٦٠ من ديوان الخطب النباتية . (٣) ص ٦١ (٤) ص ٦٢

ومما يجيده ابن نباتة تضمين آى القرآن ، وإنه ليحكم ذلك إحكاما تاما حتى تقع الآية فى سياق الكلام موقعا لطيفا لا يتنبه له القارئ إلا إذا كان من الحفاظ ، وقد اختار له له ابن الأثير العبارات الآتية :

" فيأيها الغفلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدّقون، فما لكم منه لا تشفقون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون" .

وقوله فى ذكر يوم القيامة :

" هنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرابا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا " . وقوله أيضا " هنالك يرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب، فيضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب" .

وهذه التضمينات كثيرة جدّا فى خطبه ؛ وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما يجئ فى هذا النوع (١) .

٧ — وبجانب السجع والموازنة والتضمين يوجد فن آخر لابن نباته هو الكلف بالخيال . والخيال إذا ورد فى أمثال تعابيره المثقلة بالزخرف والصنعة والتجويد يقع من أنفس الجماهير موقع السحر ؛ لأن رواد المساجد والمعابد يقبلون عليها غالبا بنفوس صافية سريعة التأثر والقبول . ومن نماذج التخيل البارع قوله يتحدّث عن الله عز شأنه وهو يباهى ملائكته بأفواج الحجاج فى عرفات :

" يحنون إلىّ حنين الطير إلى أوكارها ، ويفدون علىّ من فجاج الأرض وأقطارها ، أنضاء على الأنضاء، خوّاضا لجج الرمضاء" (٢) وأنا يعجبنى الخيال فى قوله " أنضاء على الأنضاء" يريد الحجاج الذين أنضاهم التوق والخوف على المطايا التى أنضاها السير والسرى . وقوله

---

(١) ص ٤٦٠ من المثل السائر . (٢) ص ١٢٧

" خواضا لجج الرمضاء " فيه أيضا خيال جميل ، وان كنت لا أستجيد إضافة اللجج الى الرمضاء، لأن أيام الحج لا تكون دائما فى القيظ الشديد .

وقد يسمو به التخيل الى بعض الصور الطريفة كقوله فى بعض خطب الجهاد .

" قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعتنا الدنيا إطماع السراب ، تتهارش على حطامها تهارش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب ، ننظر الى المعروف نظر الخزر الغضاب ، ونسكن الى المنكر سكون البانى بالخود الكعاب ، وقد أظلنا من العدو سحاب ممتدة الأطناب ، ودبت فى ديارنا منه عقارب الخراب "[1] ؛

وقوله فى خطبة أخرى : "ان للجنة بابا حدوده تطهير الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال ، وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه غمغمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات فى معترك القتال ، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال "[2] .

٨ — أما من الوجهة العقلية فابن نباتة يقف دائما فى حدود الأفكار السطحية ، فيبدئ ويعيد فى ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم والشهور : فيستقبل أول السنة ويبين فضل يوم عاشوراء ، ثم يخطب فى فضل رجب ، ثم يودّعه ليستقبل شعبان ، ثم يودّع شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئون التى تهم العوام . وأهم خطبه من الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضا خطب يملؤها الصخب ويقل فيها الروح الملتهب والرأى السديد . وهى دائما دون خطب علىّ بن أبى طالب التى كان يحفظها ابن نباتة ويتأثرها فى جميع مواقفه الخطابية . ومن الصعب أن نجد فى خطب الجهاد فقرة تستحق الخلود ، أو تدل على عمق فى الفكر أو سمو فى الخيال ، وإن كنا نرضى عن مثل قوله : " فقدموا مجاهدة القلوب ، قبل مشاهدة الحروب ، ومغالبة الأهواء ، قبل محاربة الأعداء "[3] وقوله : " واستشعروا السكينة اذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدام عُقابها ، وأحرّ اللطام ضرابها ، وأمرّ الحسام شرابها ، ونزلتم للجهاد منزلا قد أشرعت إليه الجنة أبوابها ،

---

(١) ص ١٨٠ من ديوان الخطب النباتية (٢) ص ١٨٤ (٣) ص ١٨٣

وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ، وقيـل هذه عروس دار الآمال فكونوا الان خُطابها ، وصرخ الشيطان بطغام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه ، وهوّل باحتشاد عَبَدة صُلبانه ، وضمن لهم ما هو مخفر فى ضمانه ؛ وجاء الحق و بطل النفاق ، وانسدت بجيش العدو الجهات والآفاق ، فأخمـدوا هنالك بصواعق العزمات رهجـه ، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه ، وأضربوا ببيض الصفاح ثبجه ، وأركبوا ببذل الأرواح لججه ، وانهبوا بالموت الصراح مهجه"[1].

ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباتة أن يملك ألباب الجماهير بخطبه ، وعرف كيف تساس العامة وكيف تغرس فى صدورها بذور التقى والإباء ، واستطاع أن يؤدّى الأغراض المرجوّة من مثـله فى تعابير فصيحة لو أنهـا رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت مَثَـلا فى براعة الانشاء . وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمقُ فى مخاطبتها عِيّ ، والتدلى فى إفهامها إفصاح . ولكل مقام مقال .

---

(١) ص ٢٠٩ و ٢١٠

٥ - أبو محمد بن حزم (١)

١ — كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة. ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس فى عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التى تأصلت جذورها عند علماء المسلمين. وكتابه "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد .

و يعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية فى الفقه والتشريع .

ولكن تبين أخيرا أنه كان لذلك الامام قلب خفاق ، وأنه حمل راية الحب فى زمانه واستهدف على عظمته للقيل والقال . وأول ما عرف ذلك كان فى دوائر المستشرقين حين طبع كتابه "طوق الحمامة" فى ليدن سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف عليه الأستاذ بِتْروف . وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جدا فى أو رو با وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل. وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتابا ألف فى "فن الحب" قبل ذلك الكتاب لا فى اللغات القديمة ولا فى اللغات الحديثة، لأن أورو با فى القرن العاشر للميلاد كانت معارفها قليلة جدا فى الشؤون الوجدانية . فكان من المستظرف حقا أن يكتشف الباحثون أنه كان فى ذلك العصر كاتب عربى يتناول حديث الحب والعشق والهيام فى تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات فى فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماما من أئمة الدين، ومثالا يُحتذَى فى أدب النفس، وكرم الطبع، ومتانة الخلق . وما كاد

(١) كان ابن حزم خليقا بأن يكتب فى ترجمة حياته فصل خاص ، ولكنا راعينا أن شخصيته فلسفية وفقهية قبل أن تكون أدبية ، ولو لا كتابه فى الحب لما عرضنا لنثره الفنى فى هذا الكتاب . ولد أبو محمد على بن حزم سنة ٣٨٣ فى قرطبة . وتوفى سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

وان مكانا ضاق عنى لضيق * على أنه فيح مهامهه سهب

وان رجالا ضيعونى لضيع * و إن زمانا لم أنل خصبه جدب

ينشر كتاب (طوق الحمامة) حتى أقبل على نقده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم : جولد يزهير ، ودوزى ، و بروكلمان ، والدكتور سنوك هو جرنيه ، والمسيو مرسيه . وتسابق المستشرقون الألمان والنمسو يون والهولنديون والفرنسيون والانجليز والأمريكيون إلى استغلال ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه .

وكان تصحيحه يعدّ رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدئون و يعيدون حتى جاء المسيو مرسيه فوضع بحثا هاما جدا بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من الأغلاط . وقد رأى أحد المصريين وهو فى باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى طوق الحمامة فراجعه مراجعة دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين أراد أن ينطق بالقول الفصل فى تحرير ذلك الكتاب . ثم قدمتْ تلك التصحيحات إلى جامعة باريس فأقرها المسيو دى مومبين والمسيو ما سينيون .

٢ — فى كتاب طوق الحمامة كلمة عن غرام ابن حزم ، وهو يحدثنا بأنه كانت له صبوات فى عهد الطفولة . وأنه قال قصيدة قبل بلوغ الحلم أولها :

دليل الأسى نار على القلب تلفحُ ودمع على الخدين يهمى و يسفحُ
إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فان دموع العين تبدى وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها فنى القلب داء للغرام مبرح (١)

ويرى ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتمادى الأنس . ويقول فى ذلك :

" وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة . وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل ، و بعد ملازمة الشخص لى دهرا ، وأخذى معه فى كل جد وهزل . وكذلك أنا فى السلو والتوق : فما نسيت لى ودّا قط . و إن حنينى إلى كل عهد تقدم لى ليغصّنى بالماء ، و يشرقنى

(١) طوق الحمامة ص ١٧

بالطعام . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما ملات شيئا قط بعد معرفتى به ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائى له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت . لا أقول فى الألّاف والاخوان وحدهم . لكن فى كل ما يستعمل الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقنى الإطراق مذ ذقت طعم فراق الأحبة . وأنه لشجا يعتادنى وولوع هم ما ينفك يطرقنى . ولقد نغّص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه . وإنى لقتيل الهموم فى عِداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفى ذلك أقول شعرا منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة ... ولا وريتْ حين ارتيادٍ زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت ... لطول امتزاج فاستقرّ عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها ... ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة ... تثم سريعا عن قريب نفادها
ولكننى أرض عَزازٌ صليبة ... منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها ... فليست تبالى أن يجود عِهادها (١)

٣ — ويرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودى بالحب . وله فى ذلك كلمة لم أقرأ أبلغ منها فى شعر ولا نثر . وانظر كيف يقول :

" إنى ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ : وهذا حكم من تداوى بدائه وإن رفه عنه سريعا . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الانسان وراءها مرمى فما وجدتنى إلا مستزيدا . ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة . ولقد ضمنى مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أُجل خاطرى فى فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ولا قاض أقل لُبانة من لُباناتى ، ووجدتنى كلما ازددت دنوا ازددت تلددا (٢) ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى . فقلت فى ذلك المجلس :

(١) طوق الحمامة ص ٢٣ ، ٢٤ (٢) التلدد : التلهف والحيرة .

وددت بأن القلب شُقَّ بمدية وأُدخلتِ فيه ثم أطبق فى صدرى
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت فان أمت سكنت شغاف القلب فى ظلم القبر

وما فى الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبعدا عن الملل، وفقدا العذال، وتوافقا فى الأخلاق، وتكافيا فى المحبة، وأتاح الله لهما رزقا دارّا، وعيشا قارّا، وزمانا هاديا. وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال"[1].

٤ — وكان ابن حزم مغرما أشد الإغرام بتتبع أخبار العشاق والمحبين ممن عاصروه وبخاصة الكتّاب والشعراء والوزراء . وكان يجد فى ذلك متعة نفسية غريبة . ومن تلك الأخبار التى عرفها بنفسه أو نقلت اليه عن معاصريه كانت مادة كتابه (طوق الحمامة) فهو يتحدّث عن الواقع لا عن الخيال . وقد تلقّط كثيرا من محاسن العشاق ومساويهم ودوّن فى كتابه أخبارا غريبة عن أهل العشق وأهل العفاف ... ومن ذا الذى لا يستطيب قوله :

" وإنى لأعلم من نأت دار محبوبه زمنا ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم وآستيفائه حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك : وفى ذلك أقول .

أطلت زمان البعد حتى إذا انقضى زمان النوى بالقرب عدت الى البعد
فلم يك إلا كرة الطرف قربكم وعاودكم بعدى وعاودنى وجدى
كذا جائر فى الليل ضاقت وجوهه رأى البرق فى داج من الليل مسود
فأخلفه منه رجاء دوامه وبعض الأراجى لا تفيد ولا تجدى"[2]

ولننظر بأى رقة يتكلم عن رسائل الحب — وللقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك كيف صحت التجارب لرجل كان يعيش للفقه والفلسفة والدين فى أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس — : " وللكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون بقطع الكتب وبحلها فى الماء ويمحو أثرها فرب فضيحة كانت بسبب كتاب . وفى ذلك أقول :

(١) ص ٥٨، ٥٩ (٢) ص ٨١

عزيز علىّ اليـــوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للـــود قاطعُ
فآثرت أن يبقى وداد ويمتحى مداد فان الفـرع للا صل تابع
فكم من كتاب فيـه ميتة ربه ولم يدره اذ نمقتـــه الأصـابع

وينبغى أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال وجنسه أملح الأجناس . ولعمرى إن الكتاب للسان فى بعض الأحايين : إما لحصر فى الانسان وإما لحياء وإما لهيبة. نعم حتى أن اوصول الكتاب الى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر اليـه سرورا يعـدل اللقاء . ولهذا ما ترى العاشـق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدى ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق فى الحقائق لايدع المراسلة وهو ممكن الوصل، قريب الدار، دانى المزار، ويحكى أنها من وجوه اللذة . وأما سقى الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبُه بسقى الحبر بالريق . وفى ذلك أقول :

جوابٌ أتانى عن كتاب بعثتـهُ فسكّن مهتاجا وهيّج ساكنا
سقيت بدمع العـين لمـا كتبته فعال محب ليس فى الود خائنا
فمـا زال ماء العين يمحو سطوره فياماء عينى قد محوت المحاســنا
غدا بدموعى أول الخـط بيننـا وأضحى بدمعى آخر الخط بائنـا

ولقد رأيت كتاب محب الى محبوبه وقد قطع فى يده بسكين له فسال الدم وآستمد مـنه وكتب اليه الكتاب أجمع : ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بصبغ اللك[1] .

٥ — وفى هذه الفقرات صور لألوان من الحياة الوجدانية التى كان يحياها أهل الأدب والفلسفة وبعض رجال الدين فى تلك العصور .

وفى اهتمام آبن حزم بتدوين تلك الأخبار دليل على أن العرب فى الأندلس كانوا ينظرون الى الحب فى القرن العاشر بنفس العين التى كان ينظر بها الفرنسيون والانجليز والألمـان الى الحب فى القرن التاسع عشر .

(١) ص ٣١ و ٣٢ واللك بالفتح نبات يصبغ به وبالضم ثفله أو عصارته .

ولم تكن تلك النظرة خاصة بعرب الأندلس . وانما كانت معروفة عند العرب فى الشرق . ومن العجيب أن فقهاء الشريعة الاسلامية هم الذين انفردوا من بين رجال الأدب العربى بإجادة هذا النوع من التأليف . وخاصة فقهاء الظاهرية كابن حزم ومحمد بن داود صاحب كتاب الزهرة الذى ألفه لمعشوقه محمد بن جامع .

ودراسة الحب باب من علم النفس لايتقنه إلا الأقلون . والناس يحسبون الكلام فى الحب لونا من العبث . لأنهم يغفلون عن طبائع النفس الانسانية التى لا تخلو من صبوات فى كهولة أو شباب .

وقد عرف كتاب الغرب وشعراؤه ومفكروه قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها الى علم النفس ثروة عظيمة لاتخطر لكتاب الشرق فى بال .

٦ — وقد وصل ابن حزم الى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال نفهمنا منه مثلا أن الحسن يتلون وفاقا لألفتنا له : فهو يذكر أنه يفضل الشعر الأشقر : لأن الفتاة التى أحبها لأول عهده بالحب كانت شقراء الشعر . وفى هذا يقول :

"ولقد شاهدت كثيرا من الناس لايتهمون فى تمييزهم ، ولايخاف عليهم سقوط فى معرفتهم ولا تقصير فى حدسهم قد وصفوا أحبابا لهم فى بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يُرضَى فى الجمال فصارت هِجيراهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إما بسلو أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها فى الخلقة[1] ولا مالوا الى سواها . بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى أن فارقوا الدنيا . وانقضت أعمارهم حنينا منهم الى من فقدوه وألفة لمن صحبوه .

وما أقول إن ذلك كان تصنعا لكن طبعا حقيقيا واختيارا لا دخلة فيه ولا يرون سواه ولا يقولون فى طىّ عقدهم بغيره . وانى لأعرف من كان فى جيد حبيبه بعض الوقص[2] فما

(١) فى الأصل (الخليقة) . (٢) الوقص ، بالتحريك ، قصر العنق .

استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية فى فمها فَوَه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصى الحظوظ فى العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطا فى الإدراك وأحقهم باسم الفهم والدراية . دعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذاك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، وانى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت لا تواتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة .

وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه . وعلى ذلك جرى الى أن وافاه أجله[1]".

ومثل هذا الكلام النفيس يفسد بطول الشرح والتعليق فليتأمله القارئ ان شاء . وليعلم أن هذا منهج جميل فى علم النفس و بمثل هذه الملاحظات الشخصية تتكون حقائق كثيرة فى تقييد ألوان الطباع والغرائز والنفوس .

٧ — ولنعرض لرأى ابن حزم فى طبيعة المرأة لنرى مافطرت عليه فى علاقاتها مع الرجال فقد شق الناس قبلنا فى فهم ذلك المخلوق اللطيف الذى يقسم الحظوظ فى خبث ولؤم و يقضى بين المحبين بمثل ما تقضى به الحية العمياء حين تدخل أبراج الحمام .

وفى ذلك متعة عقلية و روحية فإن المرأة تبدو للرجل فى صور مختلفة بعضها كريه و بعضها مقبول، وفقا لما تتلون به من غدر أو وفاء، وهى فى حاليها سم حلو المذاق ، فهى سر ما نلق فى دنيانا من رشد وغى، و بؤس ونعيم .

وليعرف القارئ أولا أن مثل هذه الدراسات لا يراد بها أن تكون عونا على فهم المرأة فستظل معقدة مهما كثرت الشروح والتفاسير . ولكن الجميل فى مثل هذه الدراسات أنها تقدم الى القارئ صورة حية لنفس صدقت فى الحب : هى نفس ابن حزم . وهو رجل قليل الأمثال بين رجال الوجدان .

(١) ص ٢٥ و ٢٦

وإنى لأعترف بأنى أرى — حين أدرس مثل هذه الآراء — أن نفس الرجل لم تتغير فى تذوق المرأة وأن المرأة لم تتغير فى حبها للرجل وطغيانها عليه . فنحن نحب أن نفترض أن هناك فروقا جوهرية فى الأذواق والأحاسيس، وأن الزمن باعدَ بين القدماء والمحدثين فى فهم طبائع الأشياء . ولكننا حين نستمع ماقال الأسلاف فى صدق واخلاص، نجد الطبيعة الانسانية هى هى لم تتغير إلا بقدر ضئيل . وهذا هو السر فى تعلقنا بالأدب القديم وحرصنا عليه فقد يكون "القدم" لونًا لغويا يرجع الى طرائق التعبير . ثم يظل الأدب على اختلاف العصور متقاربا جدا فى شرح أسرار النفوس .

كان ابن حزم منذ طفولته مغرما بدرس المرأة، ولننظر قوله :

" لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى : لأنى ربيت فى حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب أو حين تبقل وجهى . وهن علمننى القرآن، ورويننى كثيرا من الأشعار ودربننى فى الخط . ولم يكن وكدى واعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن فى جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل[1] " .

ويستخلص من هذه الفقرة أن تربية الأطفال وتعليمهم الخط والقرآن والأدب كان يوكل أحيانا الى النساء فى الأندلس فى أواخر القرن الرابع . ويستخلص منها أيضا أن النساء فى منازل الوزراء — كما هو الحال فى جميع بقاع الأرض — كانت تقع منهن هفوات تلفت أنظار الأطفال وتحملهم على الشك وسوء الظن . والطفل كثير التطلع الى أخبار من يعاشر من النساء .

ولم تقف معرفة ابن حزم للمرأة عند تلك الحدود الضيقة التى كان يتلقى فيها الدروس، بل اتفق له وهو يافع أن أحب جارية كانت له اسمها "نعم" وكانت أمنية المتمنى، وغاية فى حسن

(١) ص ٤٦ ، ٤٧

الخلق والخلق . وقد فجعتــه فيها الأقدار واخترمتها الليالى وســنه دون العشرين وكانت هى دونه فى السن وفى فجيعته بها يقول :

"لقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى، ولاتفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وما طاب لى عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا حبى لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده[1] " .

٨ — تحدث ابن حزم كثيرا عن وفاء المرأة وغدرها، وتلك مسألة لاحكم فيها لغير الطباع والظروف . وأروع ما حدثنا به القصة الآتية :

" أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمى ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد بن الوزير يحيى ابن إسحاق فعاجلتــه المنايا وهما فى أغض عيشهما، وأنضر سرورهما . فبلغ من أسفها عليــه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات . وجعلته آخر العهد به و بوصله، ثم لم يفارقها الأسف بعده الى حين موتها[2] " .

وهذه قصة تستثير الدمع، وفيها أبلغ معانى الوفاء .

و يشبه هذه القصة الموجعة قوله فى كلمة ثانية :

"وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمــه الله وكان متزوجا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر - وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالهــا وكريم خلالهــا . ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها . وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه . يغضب كل واحد منهما للكلمة التى لا قدر لها : فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب منذ ثمانية أعوام . وكانت قد شغفها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدة كلفها به : حتى صارت كالخيال المتوسم، لايلهيها من الدنيا شىء، ولا تسر من أموالها بكثير ولا قليل إذ فاتها اتفاقه معها، وسلامته لها، الى أن توفى أخى رحمه الله : فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى أن ماتت بعده بعام

(١) ص ٨٥ (٢) ص ٦١

فى اليوم الذى أكمل فيه هو تحت الأرض عاما . ولقد أخبرتنى عنها أمها و جميع جواريها أنها كانت تقول بعده : ما يقوّى صبرى و يمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وإمرأة مضجع أبدا، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره . وأعظم آمالى اليوم اللحاق به[1] " .

٩ — والمرأة — كما عرفها ابن حزم — أكثر مواساة و إسعادا فى الحب من الرجل ، وعند النساء من المحافظة على سر الحب والتواصى بكتمانه ماليس عند الرجال . ويقول فى ذلك :

"وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة . و إنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات . لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا فى الندرة . وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الاشفاق محضا الى غيرهن .

و إنى لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها و يعشقها، وأن بينهما معانى مكروهة وقيل لها إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جلية أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والأذى ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال رجاء أن تبوح لها بشىء مما ذكر لها فلم تفعل البتة ... و إنى لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان فى غير ملكها فعرفته الأمر فرام الانكار فلم يتهيأ له ذلك . فقالت له : مالك؟ ومن ذا الذى عُصِم؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلعت على سركما أحدا أبدا، ولو أمكننى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك فى مكان تصل اليها فيه ولا يشعر بذلك أحد[2] » .

وهذه الفقرة تشعرنا أن الدنيا تغيرت وأن زمن الخير مضى وراح

---

(١) ص ١٠٩ (٢) ص ٤٥ ، ٤٦

١٠ — وقد فكر ابن حزم فى تعليل هذا الخلق وهو يرى أن السر فى تمكن طبع المواساة من النساء أنهن متفرغات البال من كل شىء إلا من الحب ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتأليف ووجوهه . ولا كذلك الرجال : فانهم مشغولون بطلب العلم وكسب المال ومكابدة الأسفار، ومباشرة الحروب، وملاقاة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض . وهذا كله صارف للنفس عن فهم معانى المواساة والإسعاد . ومن هنا يحدثنا ابن حزم أنه قرأ فى سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلق عليهن ضريبة من غزل الصوف يشغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل إنما تتشوق الى الرجال[1] .

وهذا الذى يشير اليه ابن حزم هو الحقيقة الباقية : فالفراغ كان ولا يزال هو الأصل فى فساد النساء . وهو كذلك الأصل فى فساد الرجال : فان العلائق الدنسة المنحطة لا تقع إلا من الفارغين . ومن أجل ذلك يظن كثير من المفكرين أن النساء اللائى ينهضن ببعض الواجبات الفردية أو الاجتماعية لا يتعرضن لمثل ما تتعرض له النساء الفارغات مهما زعموا أن الاتصال بالناس هو أصل الفساد وأن التحجب هو أصل الصيانة والعفاف .

ولا يتوهمن أحد أن المراد من شغل المرأة هو القضاء على الصلات الجنسية ، فان تلك الصلات أساس المجتمع ، وهى كذلك أصل الحياة ومنها تفرعت البنات والأمهات . وإنما المراد أن نقضى بالرياضات المعقولة على النزق والطيش والاسراف فى الشهوات . وملاك الأمر فى هذا كله الحياء وهو خلق يستفاد من إدراك المسئوليات والتبعات . وذلك لا يتيسر للفارغين العاطلين من رجال أو نساء .

١١ — ومن رأى ابن حزم أن المرأة والرجل سواء فى الضعف . وليس أحدهما بأقوى من الآخر على ضبط النفس . فما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثَمَ مانع إلا وقع فى شرك الشيطان ، ولا امرأة دعاها رجل باسم الحب إلا وأمكنته وان طال الزمان .

---

(١) أنظر : ص ٤٦

ولكن هل معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعا معرضون للفساد ؟ اسمع ما يقول ابن حزم فى هذا المعنى فانه خير ما قرأت فى الأدب القديم والحديث :

”ولست أُبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجودا وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ، وإنى رأيت الناس يغلطون فى معنى هـذه الكلمة — أعنى الصلاح — غلطا بعيـدا . والصحيح فى حقيقة تفسـيرها أن الصالحة من النساء هى التى اذا ضُبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت . والفاسدة هى التى اذا ضُبطت لم تنضبط ، واذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تتوصل اليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال لا يداخل أهل الفسوق، ولا يتعرض للمناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع بصره الى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص و ينشر بصره الى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنـة فى الرماد لا تحـرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنـار المشتعلة تحرق كل شىء[1] .

١٢ — كان ابن حزم — كما أشرنا — مغرما بدرس المرأة، ونضيف إلى ذلك أنه حدثنا بأنه قضى حياته فى البحث عن أخبار النساء وكشف أسرارهن وكن قد أنسن منه بكتمان فكن يطلعنـه على غوامض أمورهن : فاطلع منهن على عورات كثيرة وعرف من تنبههن فى الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء . ومثل هذا السلوك مهلكة للرجل فان التحدث إلى النساء والاطلاع على أسرارهن باب إلى الغواية . ولكن اسمع ما يقول فى ذلك :

« ومع هذا يعلم الله وكفى به عليما أنى برئ الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقى الحجـزة[2] وإنى أقسم بالله أجـل الأقسام إنى ما حللت مئزرى على فـرج حرام قط ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصَم فيما بقى[3] » .

(١) ص ١١٦ (٢) الحجزة، بالضم، معقد الإزار، ومن السراويل موضع التكة . (٣) ص ١١٨

والظاهر أن ابن حزم كان يجد حرجا من الكتابة فى الحب والحديث عن الجمال وكان أهل زمانه يتهمونه بالميل الى الإثم والفسوق . فجاء يقسم بالله أنه برئ الساحة سليم الأديم .

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهبُ

وقد يهزّ ناس أكتافهم حين يسمعون مثل هذا القسم من رجل قضى حياته فى درس أسباب الهوى وفهم أسرار الجمال لأنهم لا يفهمون كيف يكون الحسن نفسه أهلا للدرس. ومن هنا ٱستبعد جماعة من الفقهاء أن يكون (طوق الحمامة) من وضع ابن حزم : ظنا منهم أنه لا يهتم بمثل هذه الأبحاث الا الفاسقون . وكان ٱبن حزم من أئمة الاسلام: فلا يعقل فى ظنهم أن يشغل بسفاسف الحب والجمال !

وهـذا الغلط يرجع إلى حقيقة ثابتة : فان الفسق حجاب كثيف يحول دون فهم الحسن والعشق. وأكثر الناس لا يتمثلون الحب إلا موصولا بالفسوق. وهؤلاء عذرهم واضح إذا أنكروا على مثل ابن حزم أن يشغل نفسه بالكلام عن الحب والمحبين .

أقسم ابن حزم أنه لم يرتكب كبيرة منذ عقل «والحر مؤتمن وإن لم يقسم» وهذا التصون من جانب ابن حزم هو سر عبقريته . فان الجمال أعز وأمنع من أن يدرك أسراره من يسومونه الهوان حين يطمعون فى الدون من ملذات الحياة ؟

الجمال أهل للدرس . وليس بكثير عليه أن تنقضى فى درسه أعمار الأئمة وعظماء الباحثين فانه أشرف وأنفس ما فى الوجود .

والذين يستهجنون درس الجمال لا يدركون كيف كانت تكون المصيبة لو ٱنصرف الباحثون إلى درس ما فى وجوههم من دمامة، وما فى طباعهم من عِوَج، وما فى عقولهم من ٱلتواء .

إنما مثل الجمال كمثل النور المشرق الوهاج لا يثبت فى مواجهته إلا أصحاء العيون . فلا يحسب قوم أننا نرتاب فى عمى بصائرهم حين نراهم يستكثرون أن يشغل مثل ابن حزم بدرس أسرار الجمال !

٦ - أبو منصور الثعالبي (١)

١ — كان عبد الملك بن محمد الثعالبي من أظهر الشخصيات فى عصره . وقد صدق صاحب الذخيرة إذ قال فيه « كان فى وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، ورأس المؤلفين فى زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت اليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب ، طلوع النجم فى الغياهب (٢) » .

وعبارة ابن بسام هذه قد تبدو كأنها نوع من المدح الفضفاض الذى يقال بلا حساب . ولكن الواقع أن الثعالبي فوق كل مدح ، وفضله على اللغة العربية أكبر من أن يقدر . وما ظنك برجل لو ضاعت مؤلفاته لفقدت اللغة العربية جزءا عظيما جدا من ثروتها الأدبية ومن الذى يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت يتيمة الدهر أو ثمار القلوب ؟

ولد الثعالبي سنة ٣٥٠ وتوفى سنة ٤٢٩ والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب . قيل له ذلك لأنه كان فقيرا قبل أن يظهر أدبه و يعلو نجمه ، و يبعد صيته . اتصل بطائفة من رجال الأدب والملك فى عصره ، منهم عبيد الله بن أحمد الميكالى ، ومأمون بن مأمون خوارزم شاه . وكان فيما يظهر مرضيا عنه من جميع من صحبهم من الرؤساء والوزراء .

٢ — كان الثعالبي شاعرا وكاتبا ، وإن لم يكن شعره فى الطبقة العالية . وقد يستجاد قوله فى النسيب :

لما بعثت فلم توجب مطالعتى ... وأمعنت نار شوقى فى تلهبها

ولم أجد حيلة تبقى على رمقى ... قبلت عين رسولى إذ رآك بها

---

(١) كان مكان الثعالبي بين كتاب النقد الأدبى أليق من مكانه بين كتاب الآراء والمذاهب . ولكنا لاحظنا أن له اتجاهات نفسية تقربه من كتاب هذا الباب .

(٢) ص ٥٢١ ج ١ وفيات .

أما نثره فجيد، يغلب عليه السجع، ولكنه برئ من التكلف ومن الغموض. وانظر قوله فى وصف عبيد الله الميكالى: «ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده، وأقره عالى فكره، من مُلَح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها ... وأيم الله مامن يوم أسعفنى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحاظه، وآنتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى:

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولاعصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروزآباد، إحدى قراه برستاق جوين، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سَبَل القطر! فانها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية، وآدابه العلوية، وألفاظه اللؤلؤية، مع جلائل إنعامه المذكورة، ودقائق إكرامه المشهورة، وفوائد مجالسه المعمورة، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من الجنة التى وُعد المتقون. فاذا تذكرتها فى تلك المرابع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طُوى لها الديباج الخسروانى، ونُفى معها الوشى الصنعانى، فلم تشبَّه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسيما، وخيرا عميما، وارتياحا مقيما، وروحا وريحانا ونعيما[1].

٣ — أهمية الثعالبى من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس، وشهوات القلوب، ونزوات الرؤس، وثورات العقول. وإن كان يظهر من ثنايا كلامه أنه رجل خبر النفس الانسانية، وعرف ما تُرزأ به من بلايا الحب والبغض، والرغبة والاشفاق، والطمع والاخفاق، وتمرس بأهوال الاقبال والادبار، والغنى والفقر، والنعيم والبؤس، وعرف كيف يصطرع الشك واليقين، والهدى والضلال.

(١) (أنظر مقدمة فقه اللغة).

وإنما هو كاتب شُغل بتدوين الفنون الأدبية واللغوية، فقدم لأهل عصره ولقراء اللغة العربيـة فى مختلف الممالك وعلى اختـلاف الأجيال غذاء قويا للعقول والمشاعر والأذواق، ووضع أمام قرائه صورا مختلفة للقرائح والعبقريات التى عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها،أو قرأ آثارها، حتى يمكن الحكم بأن القرن الرابع كان يمحى أو يكاد لو لم يظفر بذلك الحافظ الأمين.

٤ — للثعالبى مؤلفـات كثيرة . منها كتاب الكنايات، وضـعه للكناية عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يتطير منه، بألفاظ مقبولة تؤدّى المعنى، وتحسّن القبيح، وتلطّف الكثيف ، فيحصـل بها المراد مع العـدول عما ينبو عنه السمع ، ولا يأنس به الطبع .

وقد ذكر أنه لم يُسبق بتأليف مثله . وهـذا إن صح كان دليلا على تفوقه فى الابتكار .

ولكنى رأيت أحمد بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٢ يذكر فى مقدمة كتابه فى الكنايات أن تصنيفه كذلك مبتكر مخترع لم يُسبق اليه، ولم يُزاحَم من قبل عليـه ، مع أن الثعالبى سبقه بنحو ثمانين سنة، ألا يمكن أن يكون الثعالبى أيضا يدعى السبق ادّعاءً ، وأن المؤلفين من قبله قد نحوا ذلك المنحى فى جمع أنواع التعريض والكنايات؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به، وإن كنا أثبتنا هذا الفرض لمناسبة ما ادّعاه الجرجانى من الابتكار مع أنه مسبوق .

كتاب الكنايات كتاب جيد ممتع،لا تمل معاودته، ولا تنصرف النفس عن الرجوع اليه. وهو يمثل براعة العرب وافتنانهم فى التعبير . ولعل أجمل ما فيه ما يسـتحيا من نقله . ولكننا نذكر بعض الكنايات المستملحة التى أودعها الثعالبى كتابه مع الاعتراف بأننا تخيرنا أقل ما فيه روعة، إيثارا للتحفظ والوقار .

حكى الصـولى عن المكتفى فى حديث له قال : سهرت البارحة فذكرت بعض أدوية السهر : فأنست فنمت . قال : فقلنا له : والله ما سمعنا بأحسن من هـذه الكناية قط . فقال : والله ما سمعتها قبل وقتى هذا وإنما ساقها اللفظ (١) .

(١) ودواء السهر كناية عن النكاح وعن السكر .

وكتب الصاحب : إن سيدى آمتطى الأشهب فكيف وجد ظهره، وركب الطيار فكيف شاهد جريه، وهل سلم على حزونة الطريق، وكيف تصرف، أفى سعة أم ضيق ؟ (وهذه قطعة من خطاب كتبه الى صديق دخل على عروسه) .

قال : ومن طريف الكناية عن أخذ العذرة[1] ما قرأته فى أخبار بشار بن برد حين قال له يزيد بن منصور فى دار المهدى : ياشيخ ماصناعتك؟ قال : ثقب اللؤلؤ . وأرى الصاحب أخذ منه قوله لأبى العلاء الأسدى وقد دخل بأهله :

وقد مضى يومان من شهرنا فقل لنا هل ثُقِب الدرُّ

وله يقول أيضا :

قلبى على الجمرة يابا العلا فهل فتحت الموضع المقفلا

وهل فككت الكيس عن ختمه وهل كحلت الناظر الأحولا

ولابن العميد فى هذا المعنى :

أنعم أبا حسن صباحا وآزدد بزوجتك آرتياحا

قد رُضت طِرفك خاليا فهل آستلنت له جماحا

وطرقت منغلقا فهل سنَّى الإله له آنفتاحا

وأنشد أبو الفضل الميكالى لنفسه فى مداعبة كانت له بين أهله :

أبا جعفر هل فضضت الصَّدف وهل إذ رميت أصبت الهدف

وهل جبت ليلا بلا حشمة لهول السرى سُدفا فى سُدف

قال الثعالبى : و بلغنى عن ابن عمر القاضى أنه كان لا يجلس للخصوم حتى ينال من الطعام والشراب و يلم بأهله احتياطا على دينه وتعففا بالحلال عما عساه تتوق نفسه اليه من الحرام اذا بدرت منه لحظة لمن عساها تتحاكم اليه من النساء الحسان . فقرأت لأبى إسحاق الصابى فصلا فى هذا المعنى بعينه من كتاب عهد سلطانى لبعض القضاة تعجبت من حسن عبارته ، ولطف كنايته، وهو :

(١) العذرة : البكارة .

"وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفا يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ به الى آخر النهاية، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها، لئلا يلم به ملم، أو يطيف به طائف، فيحيلان عن رشده، ويحولان بينه وبين سداده"[1].

٥ — ومن مؤلفات الثعالبي «كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب»[2] وهو كتاب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة الى أشياء مختلفة يتمثل بها، ويكثر فى النظم والنثر وعلى ألسن الخاصة والعامة استعمالها، كقولهم غراب نوح، ونار ابراهيم، وذئب يوسف، وعصا موسى، وخاتم سليمان، وحمار عزير، وكقولهم كنز النطف، وقوس حاجب، وقرطا مارية، وصحيفة المتلمس، وحديث خرافة، ومواعيد عرقوب، وجزاء سنمار، ويوم عبيد، وعطر منشم، ونسر لقمان، الخ.

ونحن نقول بدون تحفظ إن هذا الكتاب من أنفس ما كتب باللغة العربية. ولغة الثعالبي فيه تمتاز عن لغته فى سائر كتبه بالخلو من السجع، والجرى على السجية السمحة بلا تعثر ولا التواء. وقد جمع الثعالبي فى كتابه هذا أكثر ما عرف لعهده من الطُّرف والنوادر والفكاهات والأقاصيص. وهو يصور علم معاصريه وجهلهم أتم تصوير. ولهذه الملاحظة قيمتها، فليس كل ما فى كتاب ثمار القلوب حقائق ثابتة، وانما هو مجموعة من الحقائق والأكاذيب التى قبلها معاصروه، وعدوها من العلم الصحيح.

فمن أغلاطه الكلام عن ثعابين مصر إذ ارتضى قول الجاحظ: الثعابين لاتكون إلا بمصر واليها حوّل الله تعالى عصا موسى عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿فألقى موسى عصاه فاذا هى ثعبان مبين﴾، يعنى أنه حولها ثعبانا. والثعبان عجيب الشأن فى إهلاك بنى آدم، فليس له عدو إلا النمس وهى إحدى عجائب الدنيا، وذلك أنها دويبة متحركة، فاذا رأت الثعبان دنت منه فينطوى الثعبان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحتبس فى بطنها ريحا،

(١) أنظر ص ١١ و ١٢ و ١٣ (٢) طبعه المرحوم محمد بك أبو شادى سنة ١٣٢٦ هـ.

وتزفر زفرة فتقدّ الثعبان قطعتين ، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر . وهى هناك أنفع لأهلها من القنافذ لأهل سجستان .

وهذه فكرة غير صحيحة ، فالثعابين موجودة فى مصر وفى غير مصر . وليس للثعابين فى مصر كل هـذا الخطر ، فقد تمضى القرون ولا يسمع بملدوغ . وان كان فى فطرة الأهالى عداوة الثعبان ومهاجمته حيث وجدوه ، وهى فطرة الناس فى جميع البلاد .

وقد عرض الثعالبى لصناعة أهل الصين فدلنا على أن معاصريه لم يكونوا بارعين فى النقش والتصوير إذ قال : "وأهل الصين مختصون بصناعة اليد والحذق فى عمل الطُّرف ، يقولون : أهل الدنيا ما عدانا عُمْى ، إلا أهـل بابل ، فانهم عُور . ولهم الإغراب فى خرط التماثيـل ، والابداع فى عمل النقوش والتصاوير ، حتى أن مصوّرهم يصوّر الانسان ولا يغادر منه شيئا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّره ضاحكا أو باكيا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصـل بين ضحك الشامت وضحك الخجل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ ، فيصوّر صورة فى صورة[(١)] .

وهذا الذى يراه الثعالبى غريبا من أهـل الصين عادىّ لا غرابة فيه عند الأمم التى تُعنَى بالتصوير ، ولكن عذر الثعالبى وعذر معاصريه وأسلافه أن النقش والتصوير كانا ممـا يحاربه رجال الدين ، فبقيت لذلك صناعات اليد خاملة أو ضعيفة عند كثير من الناس .

٦ — ومن دقائق الإضافات فى ثمار القلوب أنها ترينا فهم العرب لكثير من الطباع الانسانية والحيوانية . من ذلك (عرق الخال) فان العرب تقول : عرق الخال لا ينام . يريدون أن عرق الخال أنزع من عرق العم . قالوا : والدليل على أن تصيب الأمهات فى الأولاد أكثر وأنها على الشبه أغلب ، أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث . وكذلك جميع الحيوان . فاذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينـك وعشر من شمالك وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر أيها أكثر ، رجالهم أم نساؤهم ، واعتبر ذلك فى الابل

(١) ص ٤٣٢

والبقر والشـياه . وهم يعللون ذلك بأن الولد لا يخلق من ماء الأب دون ماء الأم ، والأب إنما يقذف مثل المخطة أو البصقة ثم يعتزل أو يغيب أو يموت أو يكون حاضرا ، والأم منهـا الرحم وهو القالب الذى يطبع على الولد وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب فى القالب. فاذا وقع ماء الرجل وماء المرأة فى القالب وفى قـرار الرحم فامتزجا تشعب خلق الولد على قدر تشعب الرحم ، ثم لا يغتـذى إلا من دم الأم ، ولا يمص إلا من قواها ، ولا يجذب إلا من الأجزاء التى فيها من لطائف الأغذية . وله ذلك مادام فى جوفها . فاذا ظهر غذته بلبنها ، ولا يشك الأطبـاء فى أن اللبن دم استحال عنـد خروجه ، فهى تغذوه بدمها مرتين ، وتزيد فى خلقه من أجزائها دفعتين ، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشدّ من حب الرجال (١) .

وهذا رأى قد يرتاب علماء اليوم فى بعض تفاصيله ، ولكنه فى جملته يدل على دقة الملاحظة عند علماء العرب وعند جمهور العرب نفسه ، فقد تغنى الشعراء فى الجاهلية وفى صدر الاسلام بفضل الخال وعدّوه من جملة الآباء .

٧ — وفى ثمـار القلوب إشارة الى كتيِّب للثعالبى اسمه (حشو اللوزينج) يبين غرامه بتصيد دقائق الأساليب . وحشو اللوزينج يضرب مثلا للشىء يكون حشوه أجود من قشره . وذلك أن حشو اللوزينج خير منه فيشبَّه به الحشو فى الكلام يستغنى عنه وهو أحسن منه . وهو نادر فى كلام العرب ، ومن أشهره قول عوف بن محلم :

إن الثمـانين وبُلِّغتَهـا قد أحوجت سمعى الى ترجمان

فقوله (و بلغتها) حشو مستغنى عنه ، ومعنى الكلام يتم بدونه ، ولكنه أحسن من جملته .

قال الثعالبى : سمعت أبا الفرج يعقوب بن ابراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول : دخلت يوما على أبى الفضل بن العميد فقال لى : إمض الى أبى الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمـانين و بلغتها) ثانيا فى كون الحشو أحسن من المحشوّ ؟ قال : فسرت اليه و بلغته الرسالة فقال : سألنى عنه محمد بن على بن الفرات فسألت أبا عمرو غلام ثعلب

(١) ص ٢٧٥

فقال سألت عنه ثعلبا فلم يأت بشيء، ثم بلغني أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدى بن زيد لابنه زيد بن عدى فى حبس النعمان :

فلوكنت الأسير — ولا تكنه ! — اذن علمت معدٌّ ما أقول

قوله (ولا تكنه) حشو مستغنى عنه، ولكنه فى الحسن نظير (و بلغتها) .

واستطرد الثعالبي فنقل عن كتابه حشو اللوزينج أن المأمون قال يوما ليحى بن أكثم : هل تغديت اليوم؟ فقال : لا ، وأيد الله أمير المؤمنين! فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها! وذلك أنه لو قال : لا أيد الله أمير المؤمنين، لكان أشبه بالدعاء عليه لا له، ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاجزة بين "لا" و"أيد الله أمير المؤمنين" حذرًا من وقوع الشبهة. وكان الصاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ فى خدود المرد الملاح[1] .

وعناية الثعالبي بالبحث عما عجز عنه أئمة اللغة والأدب واضح الدلالة على شغفه بأسرار البيان، لاسيما وقد أطال التنقيب عن دقائق التعابير التى وقعت لمعاصريه كالصاحب والميكالى والخوارزمى و بديع الزمان .

٨ — وفى ثمار القلوب تفسير روائى لبعض الأمثال، كقولهم (ماء عناق) وهو مثل يضرب للداهية . وخلاصة حديثه أن رجلا كان يسق و بيته تلقاء وجهه فنظر فاذا برجل قد عانق امرأته يقبلها ، فأخذ العصا وأقبل مسرعا، فلما رأته المرأة أخفت الرجل فيما بين المتاع ، فنظر يمنة و يسرة فلم ير شيئا، فنظر فى الأرض فلم يبصر أحدا، فكذب بصره وكر راجعا . فلما كان الورد الثانى قالت المرأة : هل لك فى أن اكفيك السق وتتورع اليوم؟ قال : نعم إن شئت . فأقام فى البيت، وانطلقت تسعى، وتحينت منه غفلة، فأخذت العصا وأقبلت حتى علت بها رأسه ، فقال : و يلك ! ما دهاك؟ قالت : أين المرأة التى رأيتك معها معانقا لها ؟ فقال : والله ما كان عندى امرأة! قالت : بل أنا نظرت اليها بعينى وأنا على الماء . فتحالفا. فلما أكثرت قال : إن تكونى صادقة فان ماءكم هذا ماء عناق[2] .

(١) (أنظر بقية الشواهد فى ص ٤٨٩ و ٤٩٠) . (٢) ص ٤٤٧

وفى كتاب ثمار القلوب كثير من أمثال هذه الأقاصيص . وهى فكاهات اخترعها الكتّاب تفسيرا للأمثال التى جهلوا مواردها ، وربما اخترعوا المثل والقصة وأذاعوهما فى الناس ، فيظن من لا رأى له أنها من أثر الواقع لا من صنع الخيال .

٩ — وأشهر مؤلفات الثعالبى "يتيمة الدهر" وهو كتاب عظيم أودعه أخبار من عاصره من الشعراء . ألفه سنة ٣٨٤ ، ثم استمر فى تحريره والإضافة اليه عدّة سنين ، فكان يبنى فيه وينقض ، ويمحو ويثبت . وصار مثله فيه كمثل من يتأنق فى بناء داره التى هى عشه ، وفيها عيشه ، فلا يزال ينقض أركانها ، ويعيد بنيانها ، ويستجدّها على أنحاء عدّة وهيآت مختلفة ، فان مات فيها مغفورا له انتقل من جنة إلى أخرى وورد من جنة الدنيا على جنة المأوى ، كما قال[1] .

وقد قسم الكتاب أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على أبواب وفصول :

القسم الأوّل فى محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل .

والثانى فى محاسن أشعار أهل العراق والدولة الديلمية من طبقات الأفاضل وما يتعلق بها من أخبارهم ونوادرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم .

والقسم الثالث فى محاسن أشعار أهل الجبل وفارس وجرجان وطبرستان من وزراء الدولة الديلمية وكتابها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها .

القسم الرابع فى محاسن أهل خراسان وما وراء النهر من الدولة السامانية والغزنية والطارئين على الحضرة ببخارى من الآفاق والمتصرفين على أعمالها ، وما يستظرف من أخبارهم ، وخاصة أهل نيسابور والغرباء الطارئين عليها والمقيمين بها .

١٠ — والثعالبى فى اليتيمة يؤثر السجع ، ولا يتركه إلا فى أحوال قليلة ، ولكن سجعه على كل حال مقبول .

---

(١) ص ٤ من المقدّمة .

وهو قليل التعليل لأحكامه على الكتاب والشعراء . فاذا بدا له أن يعلل ويحلل وينقد فعل بلا تعمق ولا استقصاء ، ومن أمثلة تعليله قوله فى تفضيل شعراء الشام وما يقاربها على شعراء سائر البلدان .

"والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خِطط العرب، ولا سيما أهل الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم أياهم[1]" .

وفى بعض الأحيان يطيل فى ترجمة الشعراء والكتاب ، ولا يفعل ذلك إلا حين يعرض لمن كثر خصومهم وأنصارهم وتشعبت فيهم الأقاويل ، كالمتنبي والصاحب وأبي فراس . وفيما عدا ذلك يلم إلماما خفيفا قد يصل به إلى ترجمة كاتب أو شاعر فى نصف صفحة . وذلك جانب من الضعف فى ذلك الكتاب النفيس .

١١ — الثعالبي فى اليتيمة مفتون بالاسراف فى إطراء من يتحدث عنهم من مشاهير الرجال . وله فى ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور بها هنا وهناك . فأبو على الزوزنى الكاتب " يغرس الدر فى أرض القراطيس، وينشر عليه أجنحة الطواويس[2]" .

وأبو الفرج الببغا "ظرف الظرف، وينبوع اللطف، له كلام، بل مدام، بل نظام من الياقوت[3] بل حب الغمام" .

وأبوالقاسم الاسكافى "لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدها وأوحدها فى الكتابة والبلاغة ومن لم تخرج مثله فى البراعة والصناعة[4]" .

وبديع الزمان " نادرة الفلك، وفرد الدهر، وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء الذهن ، وقوة النفس[5]" .

وعبد الرحمن الشيرازى " روضة مجد وشرف ، وحديقة فضل وأدب[6]" .

(١) ص ٦ (٢) ص ٧٠ ج ٤ (٣) ص ١٧٣ ج ١ (٤) ص ٢٩ ج ٤
(٥) ١٦٧ ج ٤ (٦) ص ٩٧ ج ٣

١٢ — ومع أن الثعالبي يميل إلى الطنطنة فى التعريف بالكتاب والشعراء فانه لا يلتزم هذه الخطة وانما يعود اليها فى الحين بعد الحين، ويغلب على ظنى أنه لا يفعل ذلك إلا حين تكون نفسه مستعدة لتنميق الإنشاء، واذ ذاك لا يكون مشغولا بتقديم الصفات الحقة لمن يترجم لهم، وانما يشغل بعرض مواهبه هو وقدرته على التصرف فى فنون الكلام، فتارة يقول فى ابن نباته السعدى "من فحول شعراء العصر وآحادهم، وصدور مجيديهم وأفرادهم، الذين أخذوا برقاب القوافى، وملكوا رق المعانى، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام، ممتنع النظام، يشتمل على غرر من حر الكلام، كقطع الرياض غب القطر، وفقر كالغنى بعد الفقر، وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب[1]".

وحينا يقول فى محمد بن حامد "يجمع بين قول فصل، وأدب جزل، ويؤلف بين أشتات المناقب، وينظم عقود المحامد، وله خط يستوفى أقسام الحسن، وتثر كنثر الورد، ونظم كنظم الدر[2]".

وآنا يقول فى المتنبى "نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر، فى صناعة الشعر، شاعر سيف الدولة المنسوب اليه المشهور به، إذ هو الذى جذب بضبعه، ورفع من قدره، ونفق سعر شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه فى البدو والحضر، وكادت الليالى تنشده، والأيام تحفظه[3]".

١٣ — ولنقيد هنا أن الثعالبى كثير الاستغلال لألفاظ معاصريه، فهو لا يملك كل ما فى نثره من الاستعارات والتشبيهات. وله عذره فى ذلك فقد شغل بجمع طرائف التعبير، حتى ليمكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق اليه من حيث لا يحتسب، وان كنا لا نبرئه من قصد السرقة ونية الانتهاب[4].

---

(١) ص ١٤٣ ج ٢ (٢) ص ١٦٠ ج ٤ (٣) ص ٧٨ ج ١

(٤) أنظر مقدمة سحر البلاغة ص ١١٤، ١١٥ ج ١ زهر الآداب.

١٤ — وأخيرا نذكر أن من أقتل عيوب كتاب اليتيمة إغفال الوفيات، فقد يندر أن يذكر مؤلفه فى أى عام مات من يحدثنا عنه، وفى أى عهد لقيه أو سمع به، ولو أن الثعالبى عنى بتدوين الوفيات لأدى لتاريخ الأدب حقا من أوجب الحقوق .

١٥ — ومن أهم مؤلفات الثعالبى كتاب " فقه اللغة "وهوكتاب جيد فى ثلاثين بابا رتبت فيه الألفاظ على حسب المعانى . وليس كتاب فقه اللغة فى جملته من صنع الثعالبى، فقد نقل فصولا برمتها عن أمثال ابن دريد والخوارزمى وأبى الحسن الجرجانى ، وابن الأعرابى . ولكن له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل اذا لاحظنا أن المصادر التى نقل عنها ضاعت ولم يبق لها أثر إلا فى كتابه . وهو يذكر فى الفصول التى ينقلها عن غيره أنه عرضها على مظانها فصح أكثرها أو قارب الصحة[1] . وقد يجد مؤلفا وُضع فى تفصيل طائفة من المعانى فيعمد اليه فيخرج منه مايراه أصلح لكتابه[2] . وفى الكتاب فصول مهمة فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية والرومية[3] .

ويلاحظ على كتاب فقه اللغة أنه مختصر فى موضوعه ، وأنه خال من الشواهد، بحيث يظن أن المؤلف حكّم فيه هواه ، ولو أنه ضرب الأمثال من الشعر والنثر لتحديد المعانى التى رمى الى تحديدها فى كتابه لأصبح ذلك السفر كتاب أدب ولغة، ولكان متعة لا تملها النفس، وأساسا لدرس تطورات المعانى والألفاظ والتعابير[4] .

ونحن — بعد ما وجهناه من النقد الى الثعالبى — نعترف بأنه رجل خفيف الروح نقرأ كتبه ورسائله برغبة ولذة وشوق، وهو لذلك عميق الأثر فى نشر ما عُرِف لعهده من أنواع الثقافة الأدبية . طيب الله ثراه !

---

(١) ص ٤٣٢ (٢) ص ٤٣٩ (٣) ٤٥٠ — ٤٥٦

(٤) مضت بعض الملاحظات على هذا الكتاب فيما كتبناه عن ابن فارس . راجع ص ٣٩ من هذا الجزء .